الدراسة في الجامعة النجفية

السيد نور الدين(*)

عهد الدراسة أزهى أيام الحياة، مفعم بالذكريات اللذيذة، والأحلام الحلوة. هذا العهد زاه وسعيد، وإن كان محفوفاً بالمشقات الفكرية. ولكن العذاب في سبيل تغذية الروح عذب، والعقبات في سبيل التهذيب والثقافة، تزيلها الرغبة في تحصيل الكمال، والانصراف إلى الروح وتغذيتها؛ ولا تزال ذكريات هذا العهد تحتفظ بجمالها وجلالها، وتحتل مكاناً مرموقاً لا تزاحمها فيه أية ذكرى سواها من ذكريات الحياة. فالتحدث عنه يغمرني بسعادته وهناءته؛ ويذكرني بتلك الأحلام اللذيذة التي كانت تساور نفسي وتطغى عليها، وينقلني إلى جوّ صاف من كل تعقيد واضطراب.

ليس للدراسة النجفية نظام خاص؛ يتمشى عليه الأستاذ؛ أو يلتزم به تلميذه؛ كالنظام المألوف في المدارس الحديثة. فالزمان يتساوى فيه الصباح والمساء، والليل والنهار، كما يسمح به فراغ الأستاذ أو الطالب. وكتب الدراسة معلومة ومتفق على تداولها؛ ولكن الطالب له الحرية التامة أن يدرس في غيرها من الكتب المناسبة. والمكان ليس معيناً مخصوصاً، فربما يقع الاختيار على مدرسة من المدارس، وهذه المدارس ليست معدّة للتدريس وحسب فقد تكون لسكن الطلاب؛ ومحل مراجعاتهم. وقد يقع الاختيار على مسجد من مساجد المدينة الكثيرة، وإن كان «لمسجد الهندي» امتياز في التدريس؛ وأي طالب نجفي لا يهفو فؤاده عندما يذكر هذا المسجد المبارك؟ فإن زائره في أي وقت من الأوقات؛ يرى حلقات طلاب مبثوثة في جميع زواياه، منهم من يتلقى الدروس ومنهم من يلقيها؛ وآخرون يتذاكرون والمذاكرة في اصطلاحهم (بحث) ومعنى البحث هذا إن يفسر الرفاق عبارة الكتاب الذي يدرسونه، أو يتذاكروا في مطالب أصولية أو فقهية أو سواها من المراد؛ وربما اختلفت الأفهام في تفسير العبارة أو اختلفت النظريات في صحة المطلب وفساده، وهنا تدور مناقشات حامية ترتفع فيها الأصوات وكل من المتناظرين يبذل جهد في إقناع صاحبه بنظريته، وهنا تظهر قوة الملكة في الاستدلال؛ ويستدل على

(*) عن: مجلة الغري النجفية س٩ ع٢٣-٢٤، نقلتها عن مجلة المعهد اللبنانية.

تحصيل الطالب وقوته في هضم المطالب العلمية. وبالنتيجة أما أن تتفق وجهات النظر وأما أن تبقى مختلفة. ومهما يكن من أمر فإن في هذه الطريقة فائدة كبيرة تنمي الملكة، وتقوي العارضة.

أما المواد المقررة للتدريس، فأولها دراسة النحو والصرف، ثم علم المنطق، ثم البلاغة. وفي هذه المرحلة يجوز للطالب أن يدرس بعض الكتب الأولية في علم الفقه. وبعد الانتهاء من (البلاغة) يأتي دور الأصول والفقه. وهنا مرحلتان؛ المرحلة الأولى أن يدرس الطالب الكتب المقررة لهذين العلمين؛ والمرحلة الثانية هي التوسع فيها، فيصبح الأستاذ محاضراً لا يلتزم بكتاب؛ وإنما يشرح لتلامذته من المطالب في هذين العلمين نظرياته وما تتسع له موهبته ومقدرته.

وفي هذه المرحلة يستطيع الطالب أن يدرس؛ أي علم من العلوم التي يميل إليها، كالفلسفة، والتفسير؛ وعلل الشرائع، وعلم الحديث والرجال؛ والرياضيات، وغيرها من العلوم. وفي كل هذه العلوم يجد أساتذة فنيين اختصاصيين.

الكتب المقررة:

أما الكتب المقررة لتدريس هذه العلوم فوافرة العدد؛ والغالب في التداول؛ (الأجرومية) لابن أجروم، و(قطر الندى) لابن هشام، و(ألفية) ابن مالك وشرحها لولده بدر الدين، و(مغني اللبيب) لابن هشام. هذا في علم النحو، و(شرح النظام) في علم الصرف؛ وبعض كتب غيره. و(الحاشية) للملا عبد الله وشروح (الشمسية) في علم المنطق؛ و(المطول) ومختصره في علم البلاغة، والمعالم، والقوانين، والكفاية، والرسائل في علم الأصول، و(شرح اللمعة الدمشقية)، و(الرياض)، و(مكاسب الشيخ الأنصاري)، و(مدارك الأحكام) في علم الفقه، و(منظومة السبزواري) و(الأسفار) للملا صدرا في علم الفلسفة. وهناك كتب كثيرة في بقية المواد يرجع اختيارها للأستاذ أو الطالب.

طريق التدريس:

ربما كان للأستاذ تلميذ أو أكثر؛ وقد تبلغ التلامذة عند بعض الأساتذة مائتي تلميذ أو يزيدون. يقرأ الأستاذ عبارة الكتاب ويشرحها ثم يلخص الدرس، وقد يستغرق وقت الدرس ساعة أو أكثر، ويسمح الأستاذ لتلميذه في الكلام والجدال، والأستاذ يصغي باهتمام لملاحظات التلميذ التي يوجهها مرة للأستاذ نفسه، وآونة للكتاب الذي يدرسه، وبعد انتهاء التلميذ من إبداء ملاحظته يشرع الأستاذ في الرد على تلميذه؛ شارحاً وجهة نظره في الموضوع فإن كان الطالب على صواب في ملاحظاته أقره عليها. وإن لم يوفق التلميذ في شرح وجهة نظره شرحاً واضحاً قام الأستاذ في هذه المهمة؛ وإن كان التلميذ على خطأ شرح له موطن الخطأ. وفي المرحلة الثانية، وهي الاستغناء عن الكتاب يلقي الأستاذ درسه بشكل محاضرة مفصلة، تشبع الموضوع

تدقيقاً وتمحيصاً؛ وإيضاحاً، وللتلامذة الحرية التامة في إبداء الملاحظات؛ والأستاذ يتلقاها بصدر رحب؛ فيشجع صاحبها إذا كانت وجيهة ويقدره، أما إذا كانت سخيفة فجوابها امتعاض الأستاذ وربما توبيخه.

كيفية التدريس:

يتربع الأستاذ في صدر المجلس، ويشكل التلامذة حوله حلقة مستديرة؛ وكلهم آذان صاغية؛ لما يلقيه عليهم من مطالب علمية؛ وربما اعتلى المنبر والتلامذة مبثوثون مشرئبون بأعناقهم إليه، يقبلون على مغذي أرواحهم بكل رغبة ونشاط؛ ويكرعون من سائغ علمه، وتمر الأيام فإذا بهذا التلميذ علم من الأعلام، وقطب من الأقطاب. وإذا بذلك الطالب كأستاذه مدرس كبير، ومحاضر خطير، وإذا بغير هذين من طلاب هذه الجامعة العظمى قد أصبحوا أئمة يدلون على الخير؛ ويهدون إلى صراط مستقيم؛ ويتحفون المكاتب العلمية بمؤلفاتهم القيمة.

مدة الدراسة:

ليس للطالب النجفي زمن محدود للدراسة؛ فربما استغرقت دراسته عشرة من الأعوام، وقد تستغرق عشرات، حسب رغبته في التوسع، أو حسب ظروفه التي تسمح له في هذا التوسع. وليس هناك موسم مخصوص لامتحان الطلاب وتوزيع الشهادات عليهم، غير أن الطلاب اللامعين يبرزون فتعرفهم أندية العلم، وإن طلبوا الشهادة لبّاهم أساطين العلم إليها بكل ارتياح.

وهناك من يخصص أوقاته جميعها للدرس والتدريس؛ فلا يبارح هذه الجامعة طيلة حياته ويتخذ النجف الأشرف موطناً ومقراً، وهؤلاء نفر سعيد كثير العدد.

ومهما كثر عدد الطلاب فإن نفقاتهم موفرة؛ يتقاضون جلّها من المرجع الديني الأكبر الذي ترده الأموال من سائر البلاد الإسلامية فينفقها في سبيل العلم والدين حتى أن المقدس الإمام السيد أبو الحسن رضوان الله عليه، كان ينفق في الشهر الواحد للطلاب وذوي الحاجة عشرين ألفاً من الدنانير وقيل ضعف هذا المبلغ.

المنهج بين الماضي والحاضر:

كانت طريقة التدريس في الأزمنة السابقة مجدية، يوم كان للعلوم الدينية سوق رائجة؛ يجاهد الطالب الديني في تحصيل العلوم جهاداً دونه الجهاد في ميادين القتال، ويتمتع هذا الطالب بكل تقدير واحترام، وينال الأماني التي يصبو إليها فلا يحس بضجر أو ملل، لا يخامر نفسه فتور أو كلل وإنما يقضي الأزمنة الطويلة بين هاتيك الكتب المعقدة بكل إقبال واجتهاد لا يرى جهداً أو عنتا، ولا يجد ما يدعو إلى التبرم والسأم، لوفور رغبته، ولكن في هذا العصر؛ عصر السرعة؛ وعصر المادة وعصر المناهج الحديثة انصرف كثير من الناس عن هذه العلوم

النافعة، لأن الراغب فيها لا يستطيع أن يبذل جهداً كبيراً، أو يصرف وقتاً طويلاً لتحصيل هذه العلوم، فعمد قادة العلم فيها إلى تيسير طريقة الدرس، فعدلوا من المناهج، ولكن الجامعة النجفية بدأت تشعر أنها بحاجة إلى منهاج حديث من أرقى المناهج المعدة للجامعات العظمى؛ تقوم بوضعه فئة مستنيرة من أساتذة هذه الجامعة، لها الإطلاع الكافي على المناهج الحديثة؛ ولها ملابسة لهذه الحياة الجديدة التي يحياها عصرنا الحديث. وما من شك أن السير على منهاج حديث يعيد للجامعة النجفية حيويتها الأولى، ونشاطها السالف، ومركزها العتيد السابق، ويهيب بالناشئة أن تقبل على هذه الجامعة إقبالاً عظيماً؛ وتتهافت على دراسة علومها كما كان يتهافت السالفون، وإنها لأمنية سعيد يتمناها كل مخلص لجامع النجف العزيزة، وليس على زعماء هذه الجامع بعزيز أن يقوموا بهذا العمل الجليل النافع.

النجف الأشرف:

تأسست هذه الجامعة في النجف الأشرف على عهد الزعيم الديني العظيم شيخ الطائفة الطوسي أعلى الله مقامه سنة ٤٤٨هـ ومنذ هذا العهد الكريم، أصبحت النجف مقصد رواد العلم وقد تخرج منها مصابيح هدى وأعلام قادة أسسوا المدارس في بلادهم وزوّدوا المكتبة الدينية بمؤلفات جليلة، لم تزل مورداً ينهل من نميرها العلماء الأعلام إلى يومنا هذا.

وتمتاز هذه المدينة بالموهبة الشعرية، فإن فيها شعراء حلقّوا في الأجواء الشعرية وزودوا الفكر العربي بدواوين شعرية لها قيمتها ولها أثرها النافع في الأدب العربي. وشعراؤها في هذا العصر لهم منزلة مرموقة في البلاد العربية، كالشرقي، والجواهري، والشبيبي، والصافي، والحبوبي وغيرهم.

وفيها شباب لامع لهم القدح المعلى في النظم والنثر، وهذه صحفها التي تصدر منها تحمل إلينا الرائع الجديد من المنظوم والمنثور النجفي.

وقد ملئت هذه المدينة روح الزمن بإقبال الناشئة على العلوم الحديثة، وبالجمعيات التي تأسست فيها كالرابطة الأدبية؛ ومنتدى النشر، وسواهما من المنتديات الأدبية.

والمنتدى شق الطرق لتغيير منهاج الدراسة فإن مدرسته المفيدة تعطي دروسها لطلابها على النهج الحديث؛ وقد أتت بثمار يانعة؛ وهذبت من الناشئة النجفية عدداً وافراً.

أيد الله هذه المدينة المقدسة بروح منه؛ ولا زالت مناراً للبداية والنور؛ ومصدراً للفكر والثقافة.

❖ ❖ ❖